# نماذج العناصر البشرية في بغداد العباسيين *

بقلم فؤاد افرام البستاني
استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

تقدّم لنا كلام واسع في تأسيس بغداد وازدهارها ، وما تقلّب عليها من الحوادث [1] . فبقي ان ندرس بشيء من التفصيل احوال تلك الشعوب المتنوّعة التي كانت تعيش في بغداد ، فتتنازع وتتطاحن في سبيل الحياة ، ولكل منها طريقه الخاصّ ، فيكمل لنا درس البيئة الجغرافي.

لقد كان في بغداد العرب ارباب الخلافة ، والدين ، والوزارة احياناً . والفرس اصحاب الوزارة والادارة ، والجيش ، والولايات ، ورجال الحساب والتنجيم ، والعلوم والصناعات على اختلاف انواعها.

ثم التُرك ضبّاط العساكر ، ومادّة الحروب.

وهناك الاراميون نُقلة العلوم ، واساتذة المنطق والفلسفة والطب.

---

* مادة المحاضرتين الثالثة والرابعة من محاضرات « معهد الآداب الشرقية » في فرع « الفلسفة والآداب السامية ».

١) اطلب الجزء الاول من «مشرق» هذه السنة ص ٦٥-١٠٩ ، وقد نشرنا في آخر البحث جدولاً بالمآخذ من عربية واجنبية . ولما كانت هي نفسها نفدّنا ايضاً في بحثنا الحاضر ، لم نرَ من حاجة الى اعادة ذكرها في هذا المقال . انما نستند اليه من المآخذ الجديدة ، فنذكره في الحواشي.

والهنود اصحاب الطبّ ايضاً ، والحساب والتنجيم .

واليهود قادة المتاجر ، وارباب بيوت الصّرف .

والسنديون للصناعات المتنوّعة .

والزنج للخدمة والملاهي .

والرُّطّ للسؤال والتلصّص .

وهناك الجواري ، من جميع هذه العناصر الاجنبية عن العرب ، المتغلغلات في التأثير حتى الى بلاط الخليفة .

هـذا من حيث الاجناس . اما الاديان في بغداد فلم تكن اقلّ تنوّعاً واختلافاً . فهناك المسلم السنّي ، والشيعي ، والنصراني اليعقوبي ، والنسطوري ، والملكاني ، ومكرّم الايقونات ومحاربها ، واليهودي ، والصابي ، والمجوسي ، والبوذي ، والزنديق . هـذا عدا تيّاع البدع الناشئة عن التفلسف في الاديان كالمعتزلة والمشبّهة وما الى ذلك مما يطول تعداده .

كل هذه العناصر كانت تتعايش في بغداد ، فتتعاون وتتنافس ، وتتصارع وتتطاحن ، وتتزاوج . فينشأ عن كل ذلك امتزاج بل امتزاجات متنوّعة تصبغ هـذه الثقافة المتّسمة المظاهر التي ندعوها بالثقافة العباسية والتي لا يهمنا منها ، هذه السنة ، الّا مظهر واحد ، هو الادب العباسي .

على انه لا يُتاح لنا درس صفات هذا الادب الّا اذا شاهدنا عن قرب تفاعل العناصر المتنوّعة في تلك البوتقة الهائلة ، بغداد .

## العرب

جاء في سفر التكوين (١٦ : ١٢) في وصف اسماعيل جدّ العرب : « ويكون رجلاً وحشياً يده على الكل ويد الكل عليه ، وامام جميع اخوته ينصب مضربه » . هكذا كان اسماعيل . وهكذا ظلّ حفيده العربي في عزلته وانفراده [1] . لا يرتفع فوق فكرة الفرد والبيت . واذا سما الى مدلول اجتماعي

١) اطلب بحثاً دقيقاً في الموضوع للاب لامنس : نفسية البدو قبل الاسلام في «المشرق» (٣٠ [١٩٣٢] ١٠١ - ١١١) .

فانه يعدل الى فكرة القبيلة . اما ما فوق ذلك من معنى الامة او الوطن فعبثاً نفتش عنه في عقلية البدو. وما ذنبهم ؟ وهم لم يعرفوا الاستقرار ولا شعروا بالاطمئنان الى ارض ثابتة !

حتى ان الإسلام الذي وحّد صفوفهم ، في اول عهده ، اذ دفعهم الى الخروج من جزيرتهم ، لم يقوَ الا قليلاً على توحيد نزعاتهم القبيلية اذ لم يقوَ الا قليلاً على تغيير طبيعة بلادهم ؛ وذلك بفضل ما بذله معاوية الكبير وبعض خلفائه من العمل الدائب على تحضير الحجاز وتوطين البدو. فكانت تلك الدولة العربية حقًّا بكل ما فيها من دين وعلم وسياسة وادب.

على ان طبيعة البدو كانت تنفر من الاقامة في المدن والقرى . فلا تبدو لهم فرصة الا اغتنموها للعود الى صحرائهم الفسيحة ، يهيمون فيها شأنهم منذ عهد اسماعيل ، وشأنهم في ايامنا ، وشأنهم الى ما شاء الله . فكانوا يرجعون منحدرين من فكرة الشعب والوطن الى فكرة الفرد والقبيلة.

وقد عزّز هذه الحركة انتقال الخلافة الى العباسيين ، فولّى هؤلاء وجوههم شطر فارس ، وأهملوا الحجاز اهمالاً تامًّا ، الا في موسم الحج ، حتى بارت تلك الواحات المزدهرة على عهد الامويين ، واضمحلّ بعضها من الوجود تماماً كقرية « فَدَك » التي لا نرى لها ذكرًا بعد عصر بني امية . وانصرف الخلفاء الجدد الى تولية الفُرس ، على الغالب ، بعد ان كان الامويون يحتقرون الموالي.

فلم يبقَ للعرب الا التفاخر بمجدهم الماضي ، في صدر الاسلام او قبله ، فعادوا الى شَنْشَنَتِهم الازلية من التعصب كلّ لقبيلته في القول والعمل، حتى كان الولاة منهم — وقد اصبحوا اقلية في عصر بني العباس — لا يبالون المزاحمة الفارسية ، ولا يكادون يفتكرون ، اذا ما نالوا الولاية ، الا بالتنكيل باعداء قبيلتهم من العرب . فنرى معن بن زائدة ، اذا تولى اليمن ، في اوائل العصر العباسي ، ينكّل باهلها تعصّباً لقومه من نزار . فيثأر منه عُقبة بن سالم ، والي عمان والبحرين ، فينكّل بالقيسيين تعصّباً لقومه من قحطان [1].

---

١) المسعودي : مروج الذهب (طبعة Barbier de Meynard) ٦ : ٤٥-٤٦ .

وهناك الشعراء. واي قبيلة سلمت من عجائهم!

بل ان هذه النزعة القبلية الفردية تجاوزت مظاهر الاجتماع الى الصلاة والعبادة، وشملت جميع العرب من كبيرهم الى اديبهم الى سوقتهم على السواء. فقد روى المبرّد عن «شيخ من الأزد ثقة، عن رجل منهم، ان كان يطوف بالبيت وهو يدعو لأبيه. فقيل له: ألا تدعو لأمك؟ فقال: إنها تميمية»[1].

هـذا وكل ما يمكن ان نعدّده من الأمثلة ضئيل في تمثيل هذه العصبية الداخلية التي كانت تقسم العرب قبيلةً على قبيلة وناحية على ناحية. وكان اشدّهـا ذاك النزاع بين الشمال والجنوب، بين النزارية والقحطانية، حتى ان اهل اليمن لم يغفروا لله — على قول الجاحظ — انه ارسل نبيّهم من مضر.

على ان بعض العقلاء جرّبوا ان يجمعوا بين هذه النزعات العربية لمقاومة الاعاجم فقالوا:

«العرب كلهم شيء واحد لان الدار والجزيرة واحدة، والاخلاق والشيم واحدة، وبينهم من التصاهر والتشابك والاتفاق في الاخلاق وفي الاعراق من جهـة الخؤولة المردّدة والعمومة المشتبكة، ثم المناسبة التي بنيت على غريزة التربة وطباع الهواء والماء، فهم في ذلك شيء واحـد في الطبيعة واللغة والهمة والشمائل والمراعي والرماية والصناعة والشهرة... فلما بعث الله عز وجل نبيًّا من العرب فقد بعثه الى جميع العرب وكلهم قومـه... ولانهم جميعاً يد على العجم...»[2]

وقد كان يجمع بينهم الفخر بصفة العرب والتشامخ على من سواهم من الشعوب وان كانوا مسلمين يظهر ذلك باحتقارهم للموالي من فرس وقبط وروم. حتى اصبح من العقائد، على عهد الامويين، ان «لا يصلح القضاء الا لعربي»، فضلًا عن الخلافة والإمامة وما الى ذلك من المراتب والمراكز.

وعندما اخذ بنو العباس في تولية الموالي، جاروا على عكس سياسة

---

١) المبرّد: الكامل (طبعة مصر) ١: ٩٠.

٢) الجاحظ: البيان والتبيين (طبعة السندوبي) ٣: ١٦٩.

الامويين ، كانوا ابعد من ان يحرا هذا الشعور بسر العنصر العربي . بل انهم عملوا على تعزيزه في صدور العرب اذ جرحوهم بتنحيتهم عن مراتب الدولة ؛ كما جرحوهم بابادة معالم تلك الدولة العربية الفتية بمظاعتهم الماثلة في تنكيلهم بالامويين تنكيلاً شديداً تجاوز الاحياء الى الموتى .

فقد روى عمرو بن هانيء الطائي قال : « خرجت مع عبدالله بن علي — وهو عم السفاح والمنصور — لنبش قبور بني أمية في ايام ابي العباس السفاح . فانتهينا الى قبر هشام فاستخرجناه صحيحاً لم يسقط منه الا خورمة انفه . فضربه عبدالله ثمانين سوطاً ثم احرقه . واستخرجنا سليمان من ارض دابق فلم نجد منه شيئاً الا صلبه واضلاعه وراسه ، فاحرقناه . وفعلنا ذلك بغيرهما من بني أمية . وكانت قبورهم بقيسرين . ثم انتهينا الى دمشق فاستخرجنا الوليد بن عبد الملك فما وجدنا في قبره قليلاً ولا كثيراً . واحتفرنا عن عبد الملك فما وجدنا الا شؤون راسه . ثم احتفرنا عن يزيد بن معاوية فما وجدنا منه الا عظماً واحداً . . ثم تتبعنا قبورهم في جميع البلدان فاحرقنا ما وجدنا فيها منهم . »[1]

فاصبح العرب الخلص وقد ضمت في صدورهم عاطفة سر العنصر الى عاطفة الشعور بالظلم اللاحق بهذا العنصر . لسبب الموالي عامة والفرس خاصة ، يبغضون كل من ينتمي الى غير العرب حتى وان كان ابوه عربياً ، بل نقول : وخصوصاً من كان ابوه عربياً ، وامه مولاة . كما كانت الحال في اكثر خلفاء بني العباس ، وهم يسمون هذا لونه « هجيناً » . والهجين في الاصل غير العتيق من الخيل بان يكون ابوه حواداً عربياً وامه برذونة . ثم اللئيم . قال الجاحظ : قلت لعبيد الكاتب وكان هجيناً فقيراً : « ايسرك ان تكون هجيناً ولك الف جريب ؟ » قال : « لا لعب اللؤم بي . . » قلت . « فان امير المؤمنين ابن امة . » قال : « الحرى ثم من اطاعه . . » وانشد الرياشي :

ان الاولاد الصغار كثروا ، يا رب ، فينا
رب . أوحي سترك . واري فيها هجينا

---

[1] السيوطي : التكتاب المذكور ، ٢ : ٢١٠-٢١٢

ولكن كان من العسير على الرياشي ان يدخل في العراق ، بلدة لا يرى فيها هجيناً . لان هؤلاء كانوا قد كثروا كثرة عجيبة ، ولا سيما في بغداد ، لما كان من اقبال العرب على الزواج من العجميات ، وعلى شراء الجواري . يقولون بتزقمهم على سائر الشعوب ويُعلنون كرههم للموالي ، ولا يملكون انفسهم عن الزواج ببناتهم ، ولا يملكون شهوتهم عن شراء الجواري . وذلك لانهم كانوا يرون في اولئك النساء جمالاً لا يرونه في العرب . بل انهم كانوا يرون اولئك النساء ، ولا يرون نساء العرب ، بفضل الحجاب . وهو ما اشار اليه الجاحظ ، اذ اراد ان يعلّل تلك الظاهرة الاجتماعية التي جعلت العرب يرغبون في الاماء عن العربيات ، فقال : « ان الرجل قبل ان يملك الامة قد (تأملها) . . . والحرة انما يُستشار في جمالها النساء ، والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن قليلاً ولا كثيراً والرجال بالنساء ابصر . . . وقد تُحسن المرأة ان تقول : كأن انفها السيف ، وكأن عينها عين غزال ، وكأن عنقها ابريق فضة . . . وهناك اسباب أُخر بها يكون الحب والبغض ! »

يبدو من كل هذا ان الجيل الذي نشأ عن هذا الامتزاج كان اقرب الى العصبية الاجنبية منه الى العرب ، اي انه كان يميل الى اخواله بدل ان يتعصب لاعمامه . وذلك انه رأى من العرب احتقاراً هو غير جدير به اذ كان احدّ ذكاء واحكم للامور على اختلاف انواعها ، لفضل ما فيه من تنوّع الدم وتجدّد العناصر . والتاريخ شاهد على صحة هذا الرأي . فلنأخذ اشهر خلفاء بني العباس ولنفتش عن امهاتهم . اليس افضلهم حزماً وادارة وعلماً المنصور ، والرشيد ، والمأمون ، والمعتصم ، والواثق ، والمتوكل . فالمنصور امه بربرية اسمها سلامة ؛ والرشيد امه رومية من خرشنة على الفرات اسمها الخيزران ؛ والمأمون امه فارسية من خراسان اسمها مراجل ؛ والمعتصم والواثق والمتوكل ابناء اماء ثلاث اسم الاولى ماردة ، والثانية قراطيس ، والثالثة شجاع . بل لنقابل بين المأمون والامين وهما ابنا رجل واحد الا ان ام الاول امة فارسية ، وام الثاني سيدة عربية هي زبيدة .

وكان من الطبيعي ان هؤلاء الهجناء ، ابناء الإماء ، اذ يرون انفسهم

موضع الاحتقار تجاه العرب الخُلّص ، يعملون مع سائر الشعوب على الحطّ من شأن العرب ، فتقوى تلك الحركة التي بدأت على عهد بني امية وظلّت تعمل في الخفاء حتى وجدت لها المجال واسعاً في عهد العباسيين فظهرت كاعظم ما يكون قوةً واندفاعاً وكأشد ما يكون وطأة على العرب ، وهي الحركة الشعوبية المنسوبة الى الشعوب ، والمستندة خاصة الى الفرس.

## الفرس

الفرس قوم ذوو مدنية عريقة ، وملك قديم ، وعصبية وطنيـة قومية لم تكن لاهل البادية . فكانوا من هذه الناحية لا يخافون التفرّق والتشعّب ولا يخشون قتل النزعة القومية بالنزعات الفردية ، كما رأينا في الكلام على العرب.

ثم كان ان غُزي الفرس في عقر دارهم ، وغُلبوا عـلى امرهم في بلادهم لاسباب لا يتسع المجال لذكرها. غلبتهم هذه الشراذم المحتقَرة في نظرهم. فدخلوا الاسلام ظانّين ان الدين الجديد يضمن لهم المساواة عـلى الاقل ، وهو المعلّم التسوية في كثير من الآيات القرآنية . على انهم لم يلبثوا ان شعروا بان عقلية البدو كانت اقوى من دينهم . وكان ما كان من احتقار العرب لهم مما ذكرنا شيئاً منـه ، في ما تقدّم . وكانوا يزدادون تأثّراً وانفعالاً اذ يقابلون بين آدابهم ومدنيتهم وتاريخهم ومجمل ثقافتهم ، ونصيب العرب من ذلك كله . ويهتمون بالثورة فيجدون اليد الاموية ثقيلة الوطأة عليهم وعـلى جميع الشعوب امثالهم . فينقلبون الى الحركة العامتة المنتظرة اولى الفرص للوثوب والخروج. حتى اذا تمّت قـاموا بالحركة العبّاسية وهي في مرمـاها النهائي شعوبية بل فارسية.

## الشعوبية

ويجدر بنا هنا ان نقول ان الشعوبية كانت في اول امرها لا ترمي الى ابعد من المساواة بين العرب وغيرهم من الشعوب الاسلاميـة ، فتطالب بالحقوق التي خوّلها اياها القرآن ، ليس غير . بيد انها تجاه التصلّب العربي والشموخ البدوي ،

دُفعت الى ان تبادل الاحتقار بالمثل بل تزيد ، وهي سنة طبيعية، فالضغط يولّد الانفجار ، وبالكيل الذي تكيلون به يُكال لكم ويُزاد .

وسهّل العباسيون بسياستهم مجال العمل للفرس، فاندفعوا لا يقفون عند حدّ في « تفريس » الخلافة ، اذا صح لنا هذا التعبير . فلم يكن العرب ليقفوا مكتوفين او ليتدحرجوا مخذولين . فنشأ العراك الشديد بين عنصري المملكة المهيئين . وهو عراك لا نجازف اذا قلنا انه اقوى عراك داخلي عرفته الدولة الاسلامية ، واقوى عراك تقافي عرفته الآداب العربية : هو عراك في السياسة ، والدين ، واللغة ، والادب ، والعلم ، والاخلاق .

عراك في السياسة بين الملك الاعجمي والخلافة العربية .

وعراك في الدين اولاً بين المجوسية والاسلام ؛ ثم عراك في الفقه والتفسير، بعد ان اطمأن الفرس الى الاسلام ، بين الاخذ بالرأي والقياس والاخذ بالتقليد عن السلف الصالح .

وعراك في اللغة بين الفارسية والعربية .

وعراك في الادب بين الشعر الجاهلي ، او الادب العربي المحض ، والشعر المولد او الطريقة المستحدثة بتأثير الفرس .

وعراك في العلم بين التقليد العربي المتناقل ، الذي ان لم يفد كثيراً فانه لا يضرّ، والعلم الاجنبي المنقول عن المدنيات القديمة مما لم يكن للعرب به عهد .

وعراك في الاخلاق بين تلك الشهوة البدوية الساذجة واللذة المتفوقة نهماً التي كثيراً ما تمتزج بحسن القصد وصدق السريرة ؛ وهذه اللذة الفارسية الفنية المؤطأ لها بالاستعداد ، الآخذة بطرق المدنية على اختلاف مظاهرها .

وقد يفيدنا قبل ان نذكر نتيجة هذا العراك ان نطّلع ، وان سطحياً ، على اسلحة المتعاركين فنقدرها ونقدّر نتيجة المعركة [1] :

---

(١) من المصادر الاساسية لهذا البحث اقوال الجاحظ في البيان والتبيين ، والحيوان ، والرسائل ، ومرويات ابن قتيبة في كتاب العرب وعلومها ، وابن عبد ربه في العقد ، والاصبهاني في الاغاني ، واشعار الكثيرين من الشعراء العباسيين . وقد استغلّ كل هذه الشواهد احمد امين في فصل ممتع من « ضحى الاسلام » (ص ٤٠-٧٩) رجعنا اليه فاستفدنا منه . - ومن المفيد

اسلحة العرب

كان العرب يحاربون واسلحتهم الآتية :

١ً — انهم افضل الناس ، لأن النبي منهم ، وهم الذين هـدوا الشعوب الى الحق.

٢ً — انهم اكرم الناس اخلاقاً ، ينحرون الضيف، ويحافظون على انسابهم.

٣ً — انهم اشد الناس انفةً من العـار وبعداً عن الاستعباد لأنهم لم يخضعوا لاحد قبل الاسلام ، بل انهم اخضعوا الناس بعده.

٤ً — انهم اشعر الناس ، بل ان الشعر وُلد فيهم فلم يتجاوزهم الى غيرهم.

اسلحة الفرس

اما اسلحة الفرس خاصة ، والشعوبية عامةً ، فهذه هي. وفي كلها ردّ لمزاعم العرب:

١ً — ان يكن النبي من العرب فاكثر الانبياء كانوا من غيرهم. ولا يجوز فخر العرب بالاسلام ؛ لان الاسلام ، في زعم العرب انفسهم ، غير مقصور على العرب.

٢ً — اما كرم الاخلاق فاين هو ؟ وليس مجالاً للفخر ان يضيف البدوي نزيله في تلك الصحراء ، وكل بدويّ عرضة لان يصبح ضيفاً يوماً ما. ثم انها لمكرمة صغيرة ، ان كانت مكرمـة ، لا تستحق ان يطبّل بها الشعراء ويتيهون بذلك فخراً. اما الحرص على الانساب فهو من نوع التضليل ، واي انساب لهم ؟ وقد كانوا في جاهليتهم لا يتقيّدون بنوع الزواج المعروف.

٣ً — اما عدم خضوعهم لسلطان الروم والفرس في جزيرتهم فلا ينتج من شجاعتهم ولا من انفتهم. انما ذلك لان الروم والفرس لم يروا مـا يصلح في جزيرة العرب لان يسيروا اليها ، وهم لو ارادوا لمـا وقف البدو في وجوههم. ثم ان الفوضى لا تصلح مادة للفخر، فاذا شاؤوا فليفتخروا بتلك كتلك الفراعنة

---

كذلك ان تُراجع فصل مكدونالد في « الشعوبية » واستنادها الى النزعات القومية :
D. B. Macdonald, *Shu'ūbiya* [Encyclop. de l'Islām V, 410]

والعالقة والقياصرة والاكاسرة.

أ ــ وهنا يفيض الفرس في تبيان مزاياهم من الحضارة والادب والتاريخ ...

ب ــ اما الشعر فلم ينفرد به العرب ، فللفرس ، ولليونان ، وللروم شعر وخطب وبيان ساحر . فضلاً عن ان ذاك الشعر الجاهلي اصبح مما يكرهه العصر والمدنية.

هذه بالاختصار اهم اسلحة المتعاركين.

ثم صاروا يتقارعون ، وهم في صراعهم يستخدمون كل شيء من القرآن ، الى الحديث ، الى الشعر :

يستغلون القرآن . فيقول العرب انما عنانا ، اذ قال : « كنتم خيرَ امةٍ أُخرجت للناس » ... [1]

فيقول الفرس وقد قال : « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا »[2] ... وانما معنى الشعوب : بطون العجم ، والقبائل : قبائل العرب ، والمقدّم افضل من المؤخّر.

ثم يستغلون الحديث فيضع العرب على النبي احاديث عديدة من امثال :

« من غشّ العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنله مودّتي . »

« اذا اختلف الناس فالحقُّ في مضر . »

« احبوا العرب لثلاث : لاني عربي ، والقرآن عربي ، ولسان اهل الجنة في الجنة عربي . »

فيضع الفرس احاديث وروايات تقاومها من مثل :

« لا تسبّوا فارساً ، فما سبّه احد الّا انتقم منه عاجلاً او آجلاً . »

« قد ذكرت الاعاجم عند الرسول فقال : « لأنا بهم اوثقُ مني بكم ! »

و« رأى النبي كأنه رَدِفَه غنمٌ سود ، فرَدِفته غنمٌ بيض مما يرى السود فيها لكثرتها . فاخبر النبي بذلك ابا بكر ، فقال : « السود العرب ويسلمون ، والبيض العجم يسلمون بعدهم حتى ما يرى فيهم العرب لكثرتهم . »

---

١) ٣ [آل عمران] ١٠٦

٢) ٤٩ [الحُجرات] ١٣

ثم يستفلون الشعر.

فيجري العرب على طريقتهم من الفخر بانفسهم ويهجون العجم. ومن هذا شيء كثير مشهور نكتفي منه بالقليل، ونتبسّط في سرد اجوبة شعراء الفرس، لانها اقل شهرةً :

فيقول العربي :

انا من النفر الذين جيادهم طامت على عادٍ بريحٍ صَرْصَرِ
وسلبنَ تاجَي ملكِ قيصر بالقنا واجترنَ باب الدرب لابن الاصفر

ويهجون ائمة الفرس، والبرامكة في مقدّمتهم، فيقولون :

اذا ذُكر الشرك في مجلسٍ، انارت وجوه بني بَرْمَكِ
وان تُليت عندهم آيةٌ، اتوا بالاحاديث عن مَزْدَكِ

ويقول رجل من اهل الشام يقابل بين البرامكة والامويين :

ابعد مروان وبعد مَسْلَمه وبعد اسحق الذي كان لَهْ
صار على الفرنج الزَّخمه، ان لنا بفضل يحيى نقمه
مهلكةٌ ميرةُ متنفده، اكل بني برمكَ اكل الحُطمه
ان هذا الاكل يوماً لَغَمّه أيسر شيء فيه حزُّ الغَلْصمه

فيجيبهم شعراء الفرس قائلين :

فلتْ بتاركِ ايوان كسرى لتونسَ، او لرومَلَ، فالدخول
وسيرٌ في الملا ساعٍ، وذئب جا يعوي، وليثٍ وسط غيلِ

ويقول الخريمي مقابلاً الفخر بالعرب بالفخر بالفرس :

وتادبت من مروٍ وبلخٍ فوارساً لهم حسبٌ في الاكرمين حسيبُ
وان ابي ساسان كسرى بن هرمزٍ، وحاقانُ لي، لو تعلمين، نسيبُ
ملكنا رقاب الناس في الشرك، كلهم لنا تابعٌ طوع القياد جنيبُ
سومكم خسفاً، ونقضي عليكم بنا شاءَ منا مخطئٌ ومصيبُ

ويقول بشار :

من خراسان، وبيتي في الذرى؛ والذى المعساة، فرعي قد سبق

وله ايضاً :

واني لمن قوم خراسانُ دارُهم كرامٍ، وفرعي فيهم ناضرٌ بسقُ

ويقول المتوكلي ، شاعر المتوكل ونديمه :

... واولاكم الملك آباؤنا فما ان وفيتم بشكر النعم
فعودوا الى ارضكم بالحجاز ، لاكل الضباب ، ورعي الغنم
فاني سأعلو سرير الملوك بحدّ الحسام وحرف القلم

وكثيرًا ما كان يتجاوز هذا الى التهكم باساليب شعراء العرب انفسهم في الفخر ، كما قال مخلد الموصلي يتهكم على من كان كثير الافتخار بعربيته :

انت عندي عربيٌّ ليس في ذاك كلام !
عربيٌّ ، عربيٌّ ، عربي ، والسلام .
شعراجفانك قيسومٌ ، وشيحٌ ، وعمام .

وهذا ، وقد قال له احد شعراء العرب : ما للموالي والشعر ؟ فقال :

احين كُسيتَ ، بعد العُري ، خزًّا ، ونادمت الكرامَ على العُقار ؟
تفاخر ، يا ابن راعية وراعٍ ، بني الاحرار ؟ حسبُك من خسار !
تريغ بخطبة كسرَ الموالي ويُنسيك المكارمَ عبدُ فارِ
وكنتَ ، اذا قلمت الى قراحٍ ، شركتَ الكلب في واغ الإطار
وتندو للقنافذ تدّرجها ، ولا تخفل لدوّاج الديار ،
وتفسحُ الشمال للابسيها ، وترعى الضأن بالبلد القفار .

وقد ولّد هذا النزاع فنًّا جديدًا في الشعر قائمًا على التهكم بمطالع المتقدمين والدعوة الى اختطاط اسلوب جديد في الشعر العربي ؛ فكان ، من هذه الناحية ، حسن الثمرة لذيذ الانتاج . وكان بشّار وابو نواس اشهر الداعين اليه مما نتبسط فيه اذا رُفقنا الى الكلام على الادب . وقد يمكننا منذ الآن ان نشير الى شيء من هذه الابيات التي تمثل ، بازاء النزعة الادبية الجديدة ، نزعةً عنصرية تمتّ الى الشعوبية بسبب قوي ؛ كابيات ابي نُواس :

قل لمن يبكي على رسم درس واقفًا : ما ضرّ لو كان جلس !
عاج الشقي على رسم يسائله ، وعجت اسأل من خمّارة البلد
يبكي على طلل الماضين من اسد ؟ لا درّ درّك ! قل لي : من بنو أسد ؟
ومن تميم ، ومن قيس ، ولفّهما ؟ ليس الاعاريب عند الله من احد !
لا جفّ دمع الذي يبكي على حجرٍ ، ولا صفا قلب من يصبو الى وتد !
اعدل عن الطلل المحيل ، وعن هوى نعت الديار ، ووصف قدح الأزند

ودع العُرَيْب ، وخلّها في بؤسها لمحارف إلف الشقاء مُزَنَّد

وقد استغلّ المتعاركون ايضاً طرق التأليف فكثرت الكتب من جهة في مناقب العرب وفضائلها ، ومن جهة في مثالب العرب ومناقب الفرس . وكان من ممثلي الحزب الاول الاصمعي ، والثاني ابو عبيدة . الا ان اكثر الكتب من الفئة الثانية لم تصل الينا لأن المسلمين ، بعد هذا العصر ، رأوا في الدعوة الشعوبية خروجاً على الاسلام ، فاتلفوها .

موقف الخلفاء

وقد يتساءل الباحث عن موقف الخلفاء من كل هذا ، فنقول انه يكفينا ذكر بعض شواهد تجيب عن هذا السؤال افصح جواب :

قال السيوطي ان المنصور « اول من استعمل مواليه على الاعمال وقدّمهم على العرب . وكثر ذلك بعده حتى زالت رئاسة العرب وقيادتها . »[1]

وقال الطبري : « كان للمنصور خادم اصفر الى الأدمة ، ماهر لا بأس به . فقال المنصور يوماً : ما جنسك ؟ قال : عربي ، يا امير المؤمنين . قال : ومن اي العرب انت ؟ قال من خولان سُبيت من اليمن فاخذني عدوٌ لنا . . . فاسترقت فصرت الى بعض بني امية ثم صرت اليك . قال : أما انك نعم الغلام . ولكن لا يدخل قصري عربي يخدم حرمي . اخرج ، عافاك الله ، فاذهب حيث شئت . »[2]

وتأثير البرامكة مشهور على عهد الرشيد . وكذلك تأثير الفرس على عهد المأمون ، ومن بعده حتى المتوكل الذي قدّم الترك ، فقضوا على النفوذ الفارسي والعربي معاً . ولم يكن يتراجع كبار رجال الدولة من الفرس عن التبجح بتسلطهم على الدولة باجمعها ، ومنهم على الخلفاء بنصرهم اياهم . فكان الخراسانيون يقولون : « نحن اهل هذه الدولة ، واصحاب هذه الدعوة ، ومنت هذه الشجرة ، ومن عندنا هبت هذه الريح . والانصار انصاران : الأوس والخزرج نصروا النبي في اول الزمان . واهل خُراسان نصروا ورثته في آخر الزمان . »[3]

١) تاريخ الخلفاء (طبعة مصر) ، ١٠٥ .

٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك (طبعة de Goeje) ٣ : ٤٣٩

٣) الجاحظ : مناقب الترك ، ص ٨

وكان الابناء يقولون :« ولنا بغداد بأسرها تسكن ما سكنّا ، وتحرّك ما تحرّكنا . والدنيا كلها معلّقة بها وصائرة الى معناها . . . »[1]

من الحق ان النزعة العربية كان لها تقدّم وانتصار بعض الاحيان، كما حصل اذ قتل المنصور ابا مسلم ، واذ اوقع الرشيد بالبرامكة ، واذ خلع الامين بيعة المأمون . . . انما هو انتصار موقت ، لا يظهر الا تراجع امام النفوذ الفارسي ، حتى يمكننا ، وقد عرضنا لجميع مظاهر هذا العراك ، ان نستنتج قائلين :

ان يكن الفرس فشلوا في الدين فلم يتمكنوا من وضع المجوسية موضع الاسلام ، فقد وفّقوا بعض الشيء في اللغة اذ طيّعوها وذلّلوها لهم وتسلّطوا عليها . ووفّقوا في الادب كذلك فحوّلوه وادخلوا فيه عاداتهم واخلاقهم وعملوا ، بمعاونة باقي العناصر الشعوبية ، على قتل الادب العربي الصميم. بيد انهم وفّقوا كل التوفيق في محيط السياسة والادارة فحوّلوا الخلافة العربية الى مملكة فارسية باكثر مظاهرها . . . حتى امكن الجاحظ ان يقول :« دولة بني العباس اعجمية خراسانية . »[2]

## الترك

كانوا في اول امرهم خدّاماً عند الخلفاء . اول من اتخذهم ، على قول القلقشندي ، ابو جعفر المنصور، اتخذ حمّادًا التركي. ثم اتخذ المهدي بعده مباركاً التركي . ثم اكثر الخلفاء من الاتراك بعد ذلك . وكان ان المعتصم اراد ان يتخلّص من الرقابة الفارسية فعزّز الترك ، حتى بلغ جنده منهم ٧٠ الفاً ، فخرج بهم عن بغداد الى سامرّا[3] .

وكان هذا الانتقال انتصارًا للترك على الفرس في نظره ، وانتصارًا للترك على الفرس ، وعلى العرب ، وعلى الخليفة نفسه في نظر الحقيقة.

ثم اخذ عددهم يزداد في بطانة الخليفة . ووافقهم ان المتوكل كان يبغض

---

١) الجاحظ : الكتاب المذكور ، ص ١٦

٢) الجاحظ : البيان والتبيين ٣ : ٢٠٦

٣) اطلب بحثنا السابق في « مشرق » هذه السنة ، ص ٩٤

الفرس ايضاً ، فعزّزهم ليدافعوا عنه . ومن ثم بدأ استبدادهم بالخلفاء ، وهم اجرأ من الفرس واقرب الى اراقة الدم لقربهم من الفطرة، وبعدهم عن الحضارة والرقي. فكان اولى ضحاياهم من الخلفاء المتوكل نفسه، قتلوه سنة ٨٦١، وولّوا ابنه المنتصر. فزاد استبدادهم . ومما يروي المؤرّخون انه لما تولى المعتزّ بالله سنة ٨٦٦ قعد خواصّه واحضروا المنجّمين وقالوا لهم: « انظروا كم يعيش الخليفة وكم يبقى في الخلافة؟ ». وكان في المجلس بعض الظرفاء. فقال: «انا اعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته» . فقالوا له: « فكم تقول انه يعيش وكم يملك؟ » قال : «مهما اراد الاتراك . » فلم يبقَ في المجلس الا من ضحك[1] .

ولم يرد الاتراك ان يعيش الا ثلاث سنوات فقتلوه سنة ٨٦٩ شرّ قتلة كما ذكر ابن الاثير قائلاً انهم « جرّوه برجله الى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه،واقاموه في الشمس في الدار. فكان يرفع رجلاً ويضع اخرى لشدة الحرّ، وبعضهم يلطمه . . . ثم ادخلوه سرداباً وجصّصوا عليه فمات. »[2] ويطول بنا الشرح لو شئنا ان نستقصي افاعيلهم بالخلفاء .

وقد كانت سلطتهم المطلقة على الجيش يسيّرونه كيف شاؤوا لانهم كانوا فيه اكثرية. ذكر الجاحظ ان جند الخلافة ، على عهد المتوكل، كان خمسة اقسام: « خراساني ، وتركي ، ومولى ، وعربي ، وبنوي » . ثم لم يرضَ الفتح بن خاقان، وزير المتوكل ، ان يميّز بين التركي والخراساني « لانهما اخوان » ، كما قال . وكذلك قال : « ان البنوي خراساني » . واذاً فان اربعة اخماس الجيش ، من حيث تركيب العناصر كانت متعدةً على العرب . اما من حيث العدد فكان اكثرهم الاتراك . وهو ما سهّل للجاحظ ان يقول : « فصاروا للاسلام مادّة ، وجنداً كثيفاً ، وللخلفاء وقايةً وموئلاً وجُنةً حصينةً وشعاراً دون الدثار . »[3]

---

١) ابن الطقطقي. الفخري في الآداب السلطانية (طبعة مصر) ص ١٨١

٢) ابن الاثير: الكامل ٧: ٦١

٣) الجاحظ : مناقب الترك ، ص ٤٩

وللجاحظ رسالة في «مناقب الترك» ارسلها الى الفتح بن خاقان وعدّد فيها فضائلهم، وكلها حربية اشهرها صبرهم على احتمال الشدائد من تعب وجوع وعطش، ومقاساة عراك. ورشاقتهم في الرمي والطعن بالرمح القصير الاجوف، واستعمال الوهق. ومنها انهم يصنعون اسلحتهم بايديهم ويحاربون فرساناً على البراذين لا يركبون غيرها. وهي صورة كذلك على المشاق تقنع قناعتهم وتقاسي مقاساتهم، فلا يكلفون الدولة كثيراً. فالتركي، على حدّ قول الجاحظ، «هو الراعي، وهو السائس، وهو الرائض، وهو النخّاس، وهو البيطار، وهو الفارس. فالتركي الواحد امّة على حدة.»[1]

وله كلمة تدلّ على نفور التركي من النظام الاجتماعي المقرّر، وميله الفطري الى النزو والغارات، لا بأس بايرادها قال:

«وكذلك الترك اصحاب عمد وسكان فيافٍ وارباب مواشٍ. وهم اعراب العجم، كما ان هذيلاً اكراد العرب. فحين لم تشغلهم الصناعات ولا التجارات ولا الطب والفلاحة والهندسة، ولا غرس ولا بنيان ولا بثق انهار ولا جباية غلّات؛ ولم تكن همهم غير النزو والغارة والصيد وركوب الخيل ومقارعة الابطال وطلب الغنائم وتدويخ البلدان، وكانت همهم الى ذلك مصروفة، وكانت لهذه المعاني والاسباب مسخّرة ومقصورة عليها وموصولة بها، احكموا ذلك الامر باسره واتوا على آخره وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ولذّتهم وفخرهم وحديثهم وسمرهم. فلما كانوا كذلك صاروا في الحرب كاليونانيين في الحكمة، واهل الصين في الصناعات، والاعراب في ما عددنا ونزلنا، وكآل ساسان في الملك والسياسة.»[2]

اما العلوم والآداب فكان من الطبيعي ان لا يهتم بها الترك اهتمام الفرس، لانهم كانوا، على حدة اذهانهم، قليلي الاضطلاع بالثقافة العقلية، لم يتعوّدوا الاستقرار والتفكير. ولم نعرف نابغةً منهم يُذكر قبل العصر العباسي الثالث، اي قبل ان يزّ عليهم في الدولة الجديدة اكثر من مائتي سنة.

(١) الجاحظ: مناقب الترك، ص ٢١

(٢) الجاحظ: مناقب الترك، ص ٤٥-٤٦

## الآراميون

وبضدّ الترك ، من حيث الاثر العقلي والثقافي ، كان الآراميون ، نقلة العلوم واساتذة المنطق والطب.

كانوا في تلك البقعة من قبل وصول الاسلام . كما يدل اسم الكرخ ، قبل بناء بغداد ، واسم الشماسية السريانيين[1] . والآراميون قسمان : شرقيون ، وعنهم تفرّع النساطرة او الكلدان. وغربيون، وعنهم تفرّع اليعاقبة او السريان. وكانت لهم الديورة والمناسك والمدارس المهمة تنشر ثقافتهم اليونانية الاصل والسريانية اللغة. وقد اشتهر من تلك المدارس مدرسة جنديسابور في خوزستان. وجنديسابور من بناء سابور الاول ملك الفرس ، اتخذها مركزاً لاسرى الروم. فكان لهم يد في نشر الثقافة اليونانية . ثم قام النساطرة واليعاقبة فنشروا ، بلغتهم السريانية ، تلك الفلسفة اليونانية المنصّرة بطريق مدرسة الاسكندرية ، ثم مدرسة الرُّها او اديسا. وكان لهم بجنديسابور بيمارستان تُعالج فيه المرضى ، ويدرَّس الطب والعلوم اليونانية باللغة السريانية ايضاً . وقد نشروا تلك الفلسفة باللغة الفارسية بين الفرس اولاً ، ثم بين العرب. وبها تأثر المسلمون في مجادلاتهم الدينية وفي مناقشات فرقهم كالمعتزلة وما اليها ، وذلك قبل ان تُنقل الكتب اليونانية الى العربية نقلاً منظماً على عهد المأمون . فكان اثر الآراميين سابقاً للترجمة عن اليونانية ، كما كانوا البادئين بهذه الترجمات ، فاخذوها اولاً عن السريانية ثم عن اليونانية رأساً ، واتصلوا بالعرب اتصالاً وثيقاً في بغداد . ولا يخفى ان الكلام عن مجالس النقلة والمناطقة وارباب الكلام من النساطرة واليعاقبة يتطلب بحثاً على حدة . على اننا نكتفي الآن بذكر اشهرهم نقلةً كانوا ام منجمين ، ام اطباء.[2] .

---

١) راجع بحثنا السابق ص ٦٦ وما يليها

٢) اخذنا اكثر المعلومات عن اطباء الآراميين ونقلتهم وسائر علمائهم عن القفطي: تاريخ الحكماء ، وابن ابي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء (طبعة مصر) ، وخصوصاً ابن العبري: تاريخ مختصر الدول (طبعة صالحاني) . ولما كان بحثنا هذا ملخصاً لا يكاد يتجاوز سرد اسماء الاعلام ، لم نرَ من حاجة لذكر صفحات المآخذ.

وكان اول اتصال الآراميين بالخلفاء عن طريق الطب ، ثم التنجيم . فقد ذكر القفطي ، ومن تبعه من المؤرخين ، ان ابا جعفر المنصور أصيب بمرض في معدته لم يستطع اطباؤه معالجته ، فدلّوه على جيورجيس بن بختيشوع ، رئيس اطباء جنديسابور . فعالجه وشفاه . ومن ثم اتصلت هذه الاسرة النسطورية الشهيرة بخلفاء العباسيين على مدة ثلاثة قرون . فكان منها بختيشوع بن جيورجيس ، طبيب الرشيد ؛ وجبريل بن بختيشوع ، طبيب المأمون وجعفر ، وبختيشوع بن جبريل ، طبيب المعتصم والواثق والمتوكل ؛ وعبيد الله بن بختيشوع طبيب المقتدر ؛ وجبريل بن عبيد الله ، طبيب ملوك آل بويه ؛ وعبيد الله بن جبريل الذي نبغ في عصر بعد العصر الذي يهمنا . وقد امر الرشيد احدهم جبريل بن بختيشوع ان يبني ببغداد بيمارستاناً على شكل بيمارستان جنديسابور فبناه . وكانت ادارته وقفاً على اطباء جنديسابور وتلامذتهم .

ولقد كان الطب في ذلك الحين يمثل اعلى درجة من الثقافة ، لان الطبيب كان يقرن بعلمه معرفة المنطق والفلسفة ، والالهيات ، والحساب ، والهندسة ، والنجوم ، والموسيقى احياناً . واشهر من نعرف من فلاسفة العرب ، كانوا اطباء كالكندي وابن سينا وابن رشد وغيرهم كثير .

وهكذا كان اطباء النساطرة واليعاقبة يشتغلون بالفلسفة والمنطق . فمنهم من يغلب عليه الطب كآل بختيشوع ، وعيسى بن شهلاتا ، وعيسى الصيدلاني طبيب المهدي ، وجبريل الكحّال ، اي طبيب العيون ، من اطباء المأمون . ويوسف الساهر المعروف بالقسّ ، النابغ في ايام المكتفي ، سمي الساهر لانه كان لا ينام في الليل الا ربعه او اوبد . وابن العطار عيسى بن يوسف ، طبيب القاهر . ومنهم من تغلب عليه الفلسفة والمنطق كيوحنا بن البطريق . وقد كان هؤلاء يعنون بترجمة الكتب اليونانية اما رأساً واما بطريق السريانية . واشهرهم في ذلك يوحنا بن ماسويه السرياني ، طبيب المعتصم ، ولاه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة ، وتلميذه حنين بن اسحق البارع باليونانية ، وابنه اسحق بن حنين المترجم الفيلسوف ، واخوه داود طبيب العامة ، وابن عمهما حبيش بن الاعسم . ومتى بن يونس المنطقي النسطوري تلميذ «اسكرل مار ماري» ، على

قول ابن العبري ، المتعلم على يدي الراهبين اليعقوبيين روفيل وبنيامين . «وقد انتهت اليه رئاسة المنطقيين في عصره ومصره.» وسرجيس الراسعيني اليعقوبي.

ومن مشاهير النصارى الآراميين في المنطق والفلسفة والترجمة قسطا بن لوقا البعلبكي ، ويحيى بن عدي اليعقوبي التكريتي.

وقد كان لهؤلاء ثقافة واسعة تستند الى الادب استنادها الى العلم. فكانوا في مجتمعاتهم يتذاكرون الشعر السرياني واليوناني ، فضلًا عن العربي . وقد اشار ابن العبري الى انهم كانوا يتناشدون المقاطع من شعر هوميروس باللغة السريانية.

ونحن نعرف ان الالياذة والاوديسية كانتا مترجمتين الى السريانية شعرًا . ترجمهما تيوفيل الرهاوي رئيس منجمي المهدي . «وكان تيوفيل هذا ، في قول ابن العبري ، على مذهب الموارنة الذين في جبل لبنان من مذاهب النصارى . وله كتاب تاريخ حسن . ونقل كتابي اوميروس الشاعر على فتح مدينة ايليون في قديم الدهر من اليونانية الى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة .»[1]

وقد اشتغل الآراميون كذلك بالتنجيم كما عرفنا في ذكر تيوفيل . جرّهم الى اتقان ذلك معرفتهم بالامور الفلكية ، واهتمام الخلفاء العباسيين بالتنجيم او معرفة المستقبل بواسطة النجوم. فقد ذُكر عن المنصور انه استشار المنجمين في زمن الابتداء ببناء بغداد ؛ والواثق ، لما اشتدّ مرضه ، احضر المنجمين فاستشارهم في تاريخ موته فانبأوه انه يعيش خمسين سنة ، فلم يعش بعد قولهم الا عشرة ايام. وكان الخلفاء عالبهم يستشيرون المنجمين قبل الخروج بالغزو ، او قبل حصار

---

(١) ابن العبري : الكتاب المذكور ، ص ٢١٩-٢٢٠.

اما ترجمة الرهاوي لنصفي هوميروس فلم يعثر عليها ، رغم تنقيب العلماء وابحاثهم . وقد ذكر معرّب الالياذة « ان العلامة السمعاني الماروني عثر على نسخة منها فحملها في ما حمل الى رومية من نفائس المخطوطات في اواسط القرن الثامن عشر . واصابته عاصفة في البحر فطفت على السفينة ، فطمّت كثيرًا من تلك النفائس . ومن جملتها منظومات ازهاوي.» (سليمان البستاني : الالياذة هوميروس معرّبة نظمًا ، ص ٣٦٦) . وقد نتوقل من ترجمة الالياذة ، من النشيد الثاني ، شطران سريانيان اوردهما معرّب الالياذة ، في الصفحة ٣٦٤ ، بمناسبة المعنى الذي اشارا اليه وهو :

لا يستقيم الامر ، الا ان يكن  فردٌ يخوّل صولجان الصولة

المدن، كما حصل للمعتصم في فتح عمورية، فلم يسمع قولهم وهجم عليها ففتحها. وقد كان من فضل هذا التنجيم ان وفق ابا تمام الى مطلع بائيته الجميل :

السيف اصدقُ انباءً من الكتب في حدّه الحدُّ بين الجدّ واللعب

ولعلّ اكثر الخلفاء اهتماماً بهذا العلم كان المهدي، فاكثر من المنجمين وجعل رئيساً عليهم تيوفيل الماروني السابق الذكر.

وقد اشتهر من الآراميين ايضاً بهذا العلم وبالحساب اللاحق به يحيى بن ابي المنصور، وكان من اقدر فلكيي عصره على رصد الكواكب حتى ان المأمون، لما عزم على التدقيق في حسابات الرصد، «تقدّم اليه والى جماعة من العلماء بالرصد واصلاح آلاته ففعلوا ذلك بالشماسية ببغداد، وجبل قاسيون بدمشق.»[1]

الا ان الآراميين لم ينجحوا، على الغالب، بالنجوم والتنجيم نجاح الفرس، ومنهم آل نوبخت، وابو معشر البلخي، وحبش الحاسب، واحمد بن كثير الفرغاني، وابناء موسى الخوارزمي الاصل. ولم يبلغوا خاصة شأو الحرّانيين. وهم سكان مدينة حرّان في الجزيرة العليا بين الرها وراس العين. واشهرهم ثابت بن قُرّة الرياضي الكبير منجم المعتضد، وسنان بن ثابت الطبيب، وثابت ابن سنان مدير بيمارستان بغداد، ومحمد بن جابر بن سنان، وهلال الصابئ. وقد غلبت الرياضيات والنجوم والتنجيم على اهل حرّان، كما غلبت الفلسفة والطب على الآراميين.

وهناك قوم من نصارى بغداد غير الآراميين، كان لهم أثر في تلك المدينة وهم من كانوا يدعونهم بالروم. وشاهدنا على وجودهم اسم الحي المعروف «بدار الروم»، جنوبي الشماسية، على الشاطئ الشرقي من دجلة. وكان هؤلاء إنما من تجار البيزنطيين يأتون من بلادهم آن الى آن، فيقيمون المدة بعد المدة وقد يستوطنون بغداد. واما من الاسرى يقودهم المسلمون على اثر الحروب فيبيعونهم، او يُسلمون فيندمجون من الموالي. وقد كان من الروم

١) ابن العبري: الكتاب المذكور، ص ٢٢٧

جوار كثيرات اشتهرنَ بفنون الادب والغنـاء والموسيقى الرتبة . وان من يطالع كتاب الاغاني يرى ان اكثر المغنيات المشهورات كنّ من الفرس او من الروم او من المولدات ، كما ان اكثر المغنين واشهرهم كانوا من الفرس كذلك .

والفرس والروم واليهود كادوا يحتكرون بيع الخمر وادارة بيوت الشرب واللهو، حتى روى الجاحظ عن ابراهيم بن هاني — وكان ماجناً خليعاً كثير العبث متردّدًا — قال : « ومن تمام آلة الخمار ان يكون ذمّياً ويكون اسمه اذين او مازيار او ازدانقاذار ، او ميشا او شلوما . » وهي اسماء فارسية ونصرانية ويهودية .

## اليهود

وكذلك اورد الجاحظ ان مما عظّم النصارى في قلوب العوامّ وحبّبهم الى الطغام أن منهم كتاب السلاطين ، وفراش الملوك ، واطباء الاشراف، والعطارين ، والصيارفة . ولا تجد اليهودي الا صبّاغاً او دبّاغاً او حجّاماً او قصّاباً او شمّاباً»[1]

هذه الصناعات كانت لليهود على عهد الجـاحظ . بيد ان هؤلاء لم يلبثوا ان عظم شأنهم فنزلوا حيًّا خاصًّا في بغداد دُعي « درب اليهود »[2] . واخذوا يتوسّعون بالاعمال التجارية ، حتى توصلوا الى الاخذ بالاساليب المـالية الكبرى كفتح المصارف المهمة وضمان حاجات الجيوش ، بل كانوا اول من فتح المصارف الدولية في العالم[3] . فكان لهم في بغداد الادارات المركزية ، وفي سائر المـدن الكبرى الشعب التنويـة . ثم تقـدّموا حتى انهم كانوا يسكّون النقود لحساب

---

١) شمّاباً : مصلح الشعب اي الصدع . الجاحظ : الردّ على النصارى (في مجموعة تلاث رسائل ، طبعة J. Finkel ، ص ١٧)

٢) نسب الى هذا الحيّ المحدّث ابو محمد عبد الله بن عبيد الله بن يحيى اليهودي . راجع ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٤٥-١ ، مادة يهودية .

٣) اطلب في هذا بحثًا جامعاً للمسينيون :

L. Massignon, *L'influence de l'Islam au Moyen âge sur la fondation et l'essor des banques juives.* [ *Bull. d'études orientales* de l'Institut français de Damas, t. I ]

وقد استفدنا منه في ما يلي

الخلافة . وكان الخليفة يضع بين ايديهم جواهر المملكة ، ويعطيهم اسرى الحرب . فكانوا يحتكرون العملة ، ويضمنون الغزوات والجهاد ، فيقدّمون للجيوش المؤن والذخائر ويأخذون الاسرى والسبايا والاسلاب .

وكذلك كانوا يحتكرون الصياغة ، او سوق الصرف ، والقيسارية او سوق الانسجة الاجنبية الفاخرة .

ومما يجدر بالذكر ان وزارة الدولة على عهد المقتدر (٩٠٨-٩٣٢) منحت بعض صيارفة بغداد من اليهود لقب « جهابذة الحضرة » — والجهبذ في الاصل الناقد ، العارف بتمييز الجيد من الردي — ويراد به الصيرفي الرسمي تضع السلطة بين يديه بعض وارداتها وتطلب منه ما تحتاج اليه من المال للنفقات المختلفة . اما هؤلاء الجهابذة فكانوا يوسف بن فنحاس او ينحاس — وقد ورد في تاريخ الوزراء للصابي : ابن فيجاس[1] — وهرون بن عمران ، وزكريا ابن يوحنا . وقد يكون هذا الاخير نصرانياً ، كما لاحظ ماسينيون[2] . فكانت السلطة تُغدق عليهم نعمها تارةً ، وطوراً تصادرهم وتضيّق عليهم في طلب المال[3] . واحياناً تتفق معهم اتفاقاً يكون في مصلحة الجميع كالاتفاق الذي عقده الوزير ابو الحسن علي بن عيسى مع يوسف بن فنحاس وهرون بن عمران ، وملخّص شروطه ان الوزير قال للجهبذين المذكورين :

« انني احتاج في مستهلّ كل شهر الى مال اطلقه في ستة ايام منه للرجّالة ما مبلغه ثلاثون الف درهم . وربما لم يتّجه لي في اول يوم من الشهر ولا في ثانيه . واريد ان تُقرضاني في اول كل شهر مائة وخمسين الف درهم . وترجمانها من مال الاهواز في مدة ايامه ، فان جهبذة الاهواز اليكما . ويكون هذا المال سلفاً واقفاً لكما ابداً . وأُضيف الى هذا المال الوظيفة التي على حامد وترد في كل شهر وهي عشرون الف دينار . فيكون ذلك بازاء مال القسط

---

١) هلال الصابي : تحفة الامراء في تاريخ الوزراء (طبعة Amedroz) ص ٧٩ و١٠٨

٢) Massignon, *loc. cit.* p. 5, note 5

٣) الصابي : الكتاب المذكور ٧٩-٨٠

الاول .» [1]

وقد حُمل الوزير على عقد هذا الاتفاق لانه كثيرًا ما كان يحلّ موعد دفع مرتبات الموظفين ، ولا مال لديه ، فيُدفع الى الاستلاف من التجار على سفاتج « بربح دانق ونصف فضة في كل دينار يلزمه في كل شهر . » [1] اي ما يعادل ٣٠ بالمائة في السنة ، وهي فائدة باهظة . فرأى في هذا الاتفاق المذكور ، على ما فيه من الشروط الموافقة للصيرفيين ، مخرجاً من ذلك المأزق. وهو افضل لسمعة السلطة من الاستلاف ، كما انه افضل من الالتجاء الى اعادة سكّ النقود وانقاص عيارها . وظلّ الاتفاق جارياً مدة ستة عشر عاماً على يوسف بن فنحاس وهرون بن عمران « ومن قام مقامهما » [1]

وكان الصيارفة اليهود يحفظون لحساب الدولة محصول « ديوان المصادرات » اي مجموعة الغرامات التي كانت الحكومة تفرضها على من كان يرتكب من الموظفين ، فيستغلّونها ويقتسمون الفوائد بينهم وبين الوزراء . وذلك بناء على اتفاق سرّي بين الصيرفي والوزير ، كما يستخلص من تاريخ الوزراء للصابي في المواطن المذكورة سابقاً . وقد يكون الخليفة عارفاً بهذا الاتفاق فيستفيد منه ايضاً . يدفعنا الى هذا الرأي ما وُجد في دفاتر ابن فنحاس وشريكه عندما صادرهما الوزير علي بن عيسى ، وكانا قد اتفقا اتفاقاً سرياً مع الوزير السابق ابن الفرات على الكثير من المضاربات المالية . فلما نُكب ابن الفرات ، اراد علي بن عيسى محاسبتهما فلم يجد في الحساب الا إحالات على « حُمل الى الخليفة والسادة . وشيء انصرف في خاصّ نفقات ابن الفرات . » [2]

وهكذا فانهم كانوا يربحون الخليفة، والوزراء ايضاً، دون ان تأثم الدولة باستعمال الربا . وكانت هذه الفوائد تسدّ عجز الميزانية في الدولة الذي كان يبلغ احياناً نحو المليونين من الدنانير ، كما يظهر من ارقام موازنة السنة ٩١٨ ، على عهد المقتدر ، وقد بلغت دخلاً ١٤,٨٢٩,١٨٨ ديناراً ( اي اكثر من ٩

١) الصابي: ك. م. ص ٨١

٢) الصابي: ك. م. ص ٨٠

ملايين ليرة ذهبية فرنسوية[1] وخرجاً ١٦,٩١٩,٠٨٢ ديناراً[2].

ومن اعمال اليهود المالية انهم كانوا يؤلفون شركات مساهمة لتجهيز القوافل الكبيرة بين مدن العالم الاسلامي ، بل لتجهيز الغزوات البحرية ، في منابك الخليج العجمي ، على افريقية لسبي العبيد او لشراء البضائع الثمينة في الهند والصين ، وكذلك كانوا يجهزون الغزوات البرية حتى اواسط آسية وبلاد السودان الشرقية.

وكثيراً ما ضمنوا جباية الضرائب في المقاطعات البعيدة.

وكانوا ، فوق ذلك ، يستعملون المضاربة بالاسعار ، وباسعار العملة خاصة ، يسهّل عليهم ذلك وجود عملتين في تلك الدولة : العملة الفضية ووحدتها الدرهم ، والعملة الذهبية ووحدتها الدينار . وقد قدمنا[3] ان النسبة الاصلية بين الدرهم والدينار كانت من واحد الى عشرة ، اي ان الدينار كان في اصله يعادل العشرة الدراهم . فاخذوا يتلاعبون بذلك ويتفقون مع عملائهم او فروع مصارفهم في القاهرة وغيرها من العواصم ، حتى اصبحت الاسعار تصعد وتهبط وتأتيهم بالارباح الوافرة . ونظرة واحدة تلقينا على اضطراب سعر الدرهم بالنسبة الى الدينار تكفي لتحقق هذا الامر :

| | | | |
|---|---|---|---|
| في الاصل | دينار واحد | = | ١٠ دراهم |
| على عهد الرشيد | » » | = | ٢٠ الى ٢٢ درهماً |
| على عهد المتوكل | » » | = | ٢٥ درهماً |
| بعد المتوكل | » » | = | ١٤ الى ١٥ درهماً |
| على عهد المقتدر | » » | = | ٢٠ درهماً |

ويجدر بنا الا ننسى ما قام به اليهود من تسهيل المعاملات المالية في العصر الذي ندرسه . وهو امر قلما اشار اليه المؤرخون ، حتى انتبه له مؤخراً الاستاذ

---

١) راجع . في قيمة [illegible] في الفصل الاول من هذا البحث ، مشرق السنة المالية ص ٨٣-٨٤.

٢) Mez Mission, loc. cit., p. [illegible] note 5.

٣) مشرق هذه السنة ، ص ٨٤.

ماسينيون في درسه نشأة المصارف اليهودية الدولية المذكور آنفاً . وتفصيله ان ارباب المصارف ، في تلك الايام ، اجتنابا لنقل الاموال بعينيّاتها مما كان يكلفهم النفقات الكثيرة ويعرّضها للاخطار الجمّة، رأوا ان يستعملوا الحوالات المالية ( lettres de change ) ، والسفاتج ( lettres de crédit) والصكوك (billets à ordre)[1]

هذا ملخّص موجز عن اهم اعمال اليهود المالية . ومن ثم فلا نرى ضرورة للتبسّط في نفوذهم وتأثيرهم .

وقد كان منهم كذلك العلماء باللغة والادب كابي عبيدة ، وبالطب والعلوم الدخيلة كما شاء الله اليهودي، فاثروا في الادب العربي تأثيرهم في المضاربات المالية والمصارف .

## الهنود

ومن الشعوب التي تركت اثرًا بعيدًا في الادب العباسي الشعب الهندي . على ان هذا الاثر كان في اكثره عن طريق الكتب الهندية في الحكمة والحساب ، ولا تزال الى اليوم تنسب ارقامنا الى الهند فنقول «الارقام الهندية» . اما الافراد الهنديون العائشون في بغداد فكان غالبهم من المنجّمين والاطباء . وقد عرفنا ، عن طريق الجاحظ ، ان « يحيى بن خالد البرمكي اجتلب اطباء الهند مثل منكة ، وبازيكر ، وقلبرقل ، وسندباذ » وممن يُذكر ايضاً بهلة الهندي . وهناك مجال واسع لدرس النزاع والمنافسة بين الطب الهندي والطب الآرامي ثم ان اللغة الهندية كانت معروفة في بغداد يترجم عنهم المترجمون[2] .

وقد لخّص الجاحظ صفات اهل الهند كما عرفهم في بغداد . وهي :

« واما الهند فوجدناهم يُقدّمون في التنجيم الحساب . ولهم الخطّ الهندي خاصة ويُقدّمون في الطب . ولهم اسرار الطب وعلاج فاحش الادواء خاصة .

---

١) ويرى ماسينيون ان كلمة chèque الفرنسوية اتت من كلمة صك بطريق الانكليزية عن الفارسية - الهندية « تشيك »

٢) الجاحظ : البيان والتبيين ١ : ٧١

ولهم خرط التماثيل ونحت الصور بالاصباغ ... واشباه ذلك . ولهم الشطرنج وهي اشرف لعبة واكثرها تدبيراً وفطنة . ولهم السيوف القلعية ، وهم العب الناس بها ... ولهم الرقى النافذة في السموم وفي الاوجاع . ولهم غناء معجب . ولهم الكنكلة وهي وتر واحد يُمرّ على قرعة فيقوم مقام اوتار العود . والصنج . ولهم ضروب الرقص والخفة . ولهم الثقافة عند الثقاف خاصة . ولهم معرفة المناصفة . ولهم السحر والتدخين والدمازكية (؟) . ولهم خط جامع لحروف اللغات ، وخطوط ايضاً كثيرة . ولهم شعر كثير وخطب طوال وطب في الفلسفة والادب . وعنهم اخذ كتاب كليلة ودمنة . ولهم راي ونجدة ... »[1]

## الهنود والصينيون والسودان

وكان في المجتمع العباسي عدد لا بأس به من اهل السند والصينيين والسودان وكلهم اختصوا بشيء من المرافق والصنائع .

فكان السنديون من حذّاق الطهاة ، ومشهوري صنّاع الاحذية ، حتى غدت النعال السندية مضرب المثل . وقد اتصفوا بالدهاء والنفوذ في المعاملات والامانة ، مما جعل ارباب بيوت الصرف يستخدمونهم في اعمالهم ، على حدّ قول الجاحظ : «ومن مفاخرهم ان الصيارفة لا يولون أكيستهم وبيوت صرفهم الا السند واولاد السند لانهم وجدوهم انفذ في امور الصرف واحفظ وآمن . »[2]

« فاما سكان الصين فهم اصحاب السبك والصياغة والافراغ والاذابة والاصباغ العجيبة ، واصحاب الخرط والنحت والتصاوير والنسج والخطّ ورفق الكف في كل شيء . يتولّونه ويمانونه . وان اختلف جوهره وتباينت صنعته وتفاوت ثمنه . فاليونانيون يعرفون العلل ولا يباشرون العمل ، وسكان الصين يباشرون العمل ولا يعرفون العلل . لان اولئك حكماء وهؤلاء فعلة . »[3]

اما السودان فاشتهروا في العاصمة العباسية بحسن الخدمة خاصة . وقد عرفوا

---

١) الجاحظ : فضل السودان على البيضان ، ص ٨٤

٢) الجاحظ : فضل السودان على البيضان ، ص ٨٥

٣) الجاحظ : مناقب الترك ، ص ٤٤

بالشجاعة ، وشدة الابدان ، والسخاء والامانة حتى ان الجاحظ ألف فيهم رسالة سماها « فضل السودان على البيضان » .

وكان ارباب الملاهي ومدراء بيوت الغناء يتنافسون بالزنجيات في استعمال المزمار حتى قيل : «من تمام آلة الزمر ان تكون الزامرة سوداء .» والزنجيات من اشهر الراقصات كذلك ، والزنجيون من نوابغ المهرة في الغناء العامة . عرف منهم ، في العصر الذي يهمنا ، ابو دبّوبة الزنجي ، ذكره الجاحظ وقال عنه :

« ولقد كان ابو دبّوبة الزنجي ، مولى آل زياد ، يقف بباب الكرخ بحضرة المكارين فينهق ، فلا يبقى حمار مريض ، ولا هرم حسير ، ولا متعب بهير ، الا نهق . وقبل ذلك تسمع نهيق الحمار على الحقيقة فلا تنبعث لذلك ولا يتحرك منك متحرك حتى كان ابو دبّوبة يحركه . وكأنه قد جمع جميع الصور التي تجمع نهيق الحمار فجعلها في نهيق واحد . وكذلك في نباح الكلاب . ولذلك زعمت الاوائل ان الانسان انما قيل له العالم الصغير لعلل العالم الكبير لانه يصور بيده كل صورة ، ويحكي بفمه كل حكاية ، ولانه يأكل النبات كما تأكل البهائم ، ويأكل الحيوان كما تأكل السباع ، وان فيه من اخلاق جميع اجناس الحيوان اشكالاً . »[1]

## الزط

وهناك الزُطّ ، وهم قوم من اخلاط الناس — ولعلهم اقرب الى «الغجر» في عصرنا — كانوا يجولون في الاحياء فيسرقون كل ما يقفل عنه اصحابه ، ويستعملون الكدية وهي سؤال الناس بمهارة وتفنن . وقد تقوى شوكتهم فيقطعون الطريق بين البصرة وبغداد حتى يُدفع الخليفة الى تسيير جيش لمحاربتهم ، فيقتل منهم مقتلة عظيمة .

ولا يخفى ان مهنة الكدية تركت اثرًا عميقًا في ادبنا يتعقبه كل من يقرأ مقامات الهمذاني والحريري ومن اليهما .

***

١) الجاحظ : البيان والتبيين ١ : ٦٥

## اثر هذا التمازج

من الطبيعي ان هذه العناصر المتنوّعة يؤثّر بعضها في بعض اثرًا يختلف عمقه باختلاف المخالطة والمعاشرة . ولسنا اليوم لنتقصى جميع هذه الآثار . انما يهمنا منها ما اختصّ بالادب واللغة .

اما الاثر في الادب فيتطلّب سلسلة ابحاث قد نفرد لها مجالًا خاصًا .

واما الاثر في اللغة فكان على انواع :

منها ان اللغة العربية لم تكن وحدها لغة هذا الشعب . كانت اللغة الرسمية السائدة في الدولة والدين . ولكن كان الى جنبها كلّ هذه اللغات يتكلّمها اربابها ومن يتعاملون معهم . ولقد كان من العجب العجيب ان يجول الانسان جولة في انحاء بغداد فيسمع اللغات المتباينة واللهجات المتنوّعة . وكان اوسع هذه اللغات انتشارًا بين العامة اللغة الفارسية ، حتى قال ابراهيم بن هانئ في ما تنقل الجاحظ : « ومن تمام آلة الحارس ان يكون زمّيتًا قطوبًا ، ابيض اللحية اقنى اجنى ، وصاحب تكلّم بالفارسية »[1] . وقال الاصمعي متأسّفًا : ان من الدناءة التكلّم في مصر عربي بالفارسية .[2] ولم يقتصر انتشار الفارسية على البيئة العامية ، بل كانت متفشية بين الكتّاب والشعراء . وكفى بذكر اسماء ابن المقفّع وسهل بن هرون والخريمي والمُعافى والثعالبي شاهدًا مقنعًا . وكان الشعراء خاصة ، اذا ما ارادوا الابتكار والخروج من التقليد القديم الى المعاني المصرية ، لا يرون مندوحة عن قراءة الادب الفارسي ، بدليل ما ذكر طيفور عن الثعالبي ، وهو عربي الاصل من نسل عمرو بن كلثوم ، قال :

« حدث يحيى بن الحسن بن علي بن مُعاذ بن مُسلم قال : اني بالرقة بين يدي محمد بن طاهر بن الحسين على بركة اذ دعوت بغلام لي فكلّمته بالفارسية . فدخل الثعالبي وكان حاضرًا في كلامنا . فتكلم معي بالفارسية . فقلت له : « ابا عمرو ، مالك وهذه الرطانة . » (قال) فقال لي : « قدمت بلدتكم هذه ثلث

---

١) الجاحظ : البيان والتبيين ١ : ٨٠

٢) ابن قتيبة : عيون الاخبار (طبعة دار الكتب المصرية) ١ : ٢٦٦

قدمات. وكتبت كتب العجم التي في الخزانة بمرو . . . كتبت منها حاجتي. ثم قدمت نيسابور وجُزتُها بعشر فراسخ الى قرية يُقال لها ذِوَدَر فذكرت كتاباً لم اقض حاجتي منه فرجعت الى مرو فاقمت اشهراً.» (قال): قلت: «ابا عمرو، لِمَ كتبت كتب العجم.» فقال لي: «وهل المعاني الا في كتب العجم والبلاغة اللغة لنا والمعاني لهم». ثم كان يذاكرني ويحدّثني بالفارسية كثيراً.»[1]

وفي «بيان» الجاحظ[2] كثير من الشعر العربي ادخلت فيه الالفاظ والمقاطع الفارسية تملّحاً وتقرُّباً من الخلفاء.

وقد ذكر الجاحظ اديباً من القصاص اسمه موسى الاسواري، فقال عنه: «وكان من اعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية. وكان يجلس في مجلسه المشهور به فيقعد العرب عن يمينه، والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحوّل وجهه الى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية، فلا يدرى باي لسانٍ هو ابين. واللغتان اذا التقتا في اللسان الواحد ادخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها، الا ما ذكروا من لسان موسى بن سيار الاسواري»[3]

ومنها ان اللغة العربية الفصحى اكتسبت كثيراً من الكلمات الجديدة دخلت عليها من اليونانية والفارسية والسريانية والهندية بواسطة التراجم. واكتسبت كذلك معاني جديدة لكلماتها القديمة حدثت بفضل تآليف الفقه والكلام والفلسفة والنحو والعلوم الدخيلة على انواعها، مما لا يتسع المجال لتعداده في هذا البحث. واكتسبت ايضاً مرونة في التعبير لم تعرفها في عهدها السالف.

على انها تأثرت بغداد ادخلته عليها لهجات الشعوب. وهذا الفساد على نوعين:

نوع حوّر في الالفاظ والتعابير والتراكيب العربية، ولاسيما بعض قواعد

١) طيفور: كتاب بغداد ٦: ١٥٧-١٥٨
٢) البيان والتبيين ١: ١٠٨-١١٠
٣) » » ١: ٢٢٤

الاعراب ، كالمذكر والمؤنث والعدد ، فولّد ما يُعرف باللغة العامية او الدارجة . حتى اضطُر الكسائي ، على عهد الرشيد ، الى وضع رسالة في « لحن العامّة » .

ومن امثال هذا اللحن عدم مراعاة التراكيب العربية، كما ذكر الجاحظ عن غلامه نفيس السندي الاصل من انه تشاجر وغلاماً آخر فقال له : «الناس، ويلك ، انت حياء كلهم اقل » يريد : « ويلك ، انت اقل الناس كلهم حياء » فاجرى الالفاظ العربية على طريقة التركيب في لغته . ومن هذا النوع جواب من قال اذ سُئل عن اي صنعة يجب ان يعلّم الغلام الفلاني ، فقال : «اسلموه (اي ضموه) في اصحاب سند نعال » يريد « اصحاب النعال السندية » [1]

ومن الامثلة على تلك اللغة العامية ما نقله صاحب الاغاني عن ان احدهم خاطب ابا العِبر (وهو رجل غريب الاطوار فكه فيه دعابة) وقد رآه على بعض الحالات المضحكة فقال : « خرب بيتك أيش هذا العمل ؟ » [2]

وقد تفشّى هذا الخطأ في جميع المدن العراقية اذ ذاك ، حتى زعم ابو العاصي « انه لم يرَ قروياً قط لا يلحن في حديثه . » [3] وحتى كان النحويون « اذا وجدوا اعرابياً يفهم هذا اللحن المتفشي في المدن يهرجوه، اي زيّفوه، ولم يسمعوا منه » [4] لعدم خلوص ملكته العربية .

اما موقف البدو من هذه اللغة فكان عجيباً . يستغربون هذا الامر ، ويستغربون فوقه ان هؤلاء الجماعة اللحّانين ، اي الذين يخطئون ، يتاجرون ويربحون . وقد مرّ احدهم في اسواق بغداد فبهر بحركتها، فلم يتمالك ان صاح : « هم يلحنون ويربحون ، ونحن لا نَلحَن ولا نربح . »

وهناك لحن آخر كان يقوم باللفظ ، او الخطأ في بعض مواقع الاعراب ، وذلك في الكلام الفصيح والخطابة ، وهو خاصّ بالعلماء وارباب الثقافة على الغالب .

---

١) الجاحظ : البيان والتبيين ٣ : ٢٢٦

٢) الاغاني ٢٠ : ٩٣

٣) الجاحظ : البيان والتبيين ١ : ١٢٢

٤) الجاحظ : البيان والتبيين ١ : ١٢٢

من ذلك الخلط في اللفظ بين بعض الحروف كالجيم والزاي ، والقاف والكاف ، والحاء والخاء والهاء ، والشين والسين ، والزاي والسين ، مما لا تزال نتحققه اليوم في من يتعلم اللغة العربية من الاجانب على تقدمه في السن. والعرب تسمي هذا الخطأ في اللفظ اللُكنَة . قال الجاحظ :

« وقد يتكلم المفلاق الذي نشأ في سواد الكوفة بالعربية المعروفة ، ويكون لفظه متخيّرًا فاخرًا ، ومعناه شريفاً كريماً ، ويعلم مع ذلك السامع لكلامه ومخارج حروفه أنه نبطي . وكذلك اذا تكلم الخراساني على هذه الصفة فانك تعرف ، مع إعرابه وتخيّر الفاظه في مخرج كلامه ، انه خراساني . وكذلك ان كان من كتاب الاهواز . ومع هذا انا نجد الحاكية من الناس يحكي الفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم لا يغادر من ذلك شيئاً ، وكذلك تكون حكايته للخراساني والاهوازي والزنجي والسندي والحبشي »[1] .

وقال ايضاً :

« الا ترى ان السندي، اذا جُلب كبيرًا ، فانه لا يستطيع الا ان يجعل الجيم زايًا ولو اقام في عليا تميم وسفلى قيس وبين عجز هوازن خمسين عاماً ؟ وكذلك النبطي القحّ ، خلاف المفلاق الذي نشأ في بلاد النبط ، لان النبطي القح يجعل الزاي سيناً . . . والنخاس يتحن الجارية اذا ظنّ انها رومية ، واهلها يزعمون انها موسة ، بان تقول : « ناعمة » وتقول : « شمس » ثلاث مرات متواليات »[1]

ومن مشاهير اصحاب اللُكنة هذه : ابو مسلم الخراساني ، كان جيّد المعاني ، وكان اذا اراد ان يقول : قلت له ، قال : كلت له ، يحوّل القاف كافاً . ومنهم زياد الاعجم كان يجعل السين شيناً ، والطاء تاء ، والحاء هاء ، وكان شاعرًا مجيدًا . ولكنه لم يكن يحسن الالقاء . وقد مدح المهلب بن المغيرة فانشده :

فتى زاده الشلتان في المجد رغبةً  اذا عثر الشلتان كل جليل

---

١) البيان والتبيين ١ : ٦٤-٦٦

يريد : السلطان والحمد . وكان منهم اكثر الاطباء والمناطقة من آراميين وروم وفرس وهنود .

وهناك ايضاً خطأ العلماء الناتج من اهمالهم تطبيق القواعد ، على معرفتهم اياها . فقد روي عن ابي عبيدة انه كان ، مع غزارة علمه ، لا يقيم اعراب جملة ولا وزن بيتٍ يُنشده .

ومن هؤلاء ابو حنيفة الفقيه الكبير . وابن ضحيان الازدي ، وكان يقرأ القرآن فيقول : « يا ايها الكافرين . » فقيل له في ذلك . فتخلّص قائلاً : « قد عرفت القراءة في ذلك . ولكني لا اجلّ امر الكفرة » ( اي لا ارفعهم ) . وقد كثر انتقاد العلماء على هذه الاخطاء حتى اخذ بعضهم يهابون الكلام المحرّك فيتجنبون الاعراب . وقد روى الجاحظ عن مهدي بن مهلهل انه كان يقول : « حدّثنا هشامْ (مجزومة) ثم يقول : ابنْ ، ويجزمه . ثم يقول : حسانْ ، ويجزمه . لانه حين لم يكن نحوياً رأى ان السلامة في الوقف »[1]

***

هذا جلّ ما يُقال ، بالاختصار ، عن تمازج الشعوب والثقافات في تلك المدينة العظيمة . اما التبسُّط في درس هذه الثقافات المختلفة وتأثير بعضها في البعض الآخر ، وتسارقها جميعاً الى توليد الادب العباسي ، فيتطلّب البحث في اصول الثقافات ، واضطلاع الادباء والشعراء والعلماء بها ، ودرس مجالسهم وحلقاتهم الخاصة والعامة ، كل فريق منهم على حدة . مما قد نوفق اليه في المستقبل ، ان شاء الله .

١) البيان والتبيين ٢ : ١٦٣